الهجرة العلمية للجزائريين نحو تونس خلال الحقبة الاستعمارية

الأستاذة: عبد النوز فتيحة

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة – الجزائر

مقدمة:

منذ البدايات الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر ظهرت موجة من هجرات الجزائريين نحو تونس هذه الهجرات أعقبت رحيل القوات الانكشارية إلى تركيا، بعد تجريدها من السلاح، وتلاها خروج الداي حسين وحاشيته وأعيان العاصمة والمدن الكبرى سنة 1830م، وكان الدافع الرئيسي لهذه الهجرات هو الرفض لسيادة المحتل الكافر على صاحب الأرض المسلم، لذا لم تكن الهجرة غاية في حد ذاتها، لكنها كانت وسيلة لجأ إليها الجزائريون نتيجة الأوضاع السيئة التي آلت إليها البلاد بسبب القهر الذي مارسه المستعمر الفرنسي على السكان، وهذا ما دفع بالعديد من الأفراد والعائلات إلى الهجرة، ولمغادرة الجزائر للالتحاق بتونس خصوصا والمشرق العربي عموما وقد تعددت أسباب ذلك، فمنهم من كانت دوافعه دينية ومنهم من كانت دوافعه علمية، إضافة إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، وفي هذا المقال سنتناول الهجرات الدينية والعلمية للجزائريين خلال الحقبة الاستعمارية.

1 – الدوافع العلمية لهجرة الجزائريين نحو تونس

يعد العامل الديني سببا وجيها ورئيسيا في هجرة الجزائريين، وذلك بسبب مراقبة المؤسسات الدينية ومصادرة الأوقاف، وإدارة الشؤون الدينية من طرف فرنسا، من عدل وتعيين القضاة المسلمين وتسمية الأئمة وإعلان المواسم الدينية إلى غير ذلك، استمرت في التسلط على كل الأديان في الجزائر إلى سنة 1907 م، حيث أعلنت فصل الدين عن الدولة وسحبت سلطتها عن المسيحية واليهودية واحتفظت بها بخصوص الإسلام، هذا التميز أثار سخط الجزائريين ورأوا وتأكدوا أنه لا مستقبل لهم في بلادهم لذا ذهبوا ينشدون ملجأ لهم في الخارج.[1]

هاجر الجزائريون إلى تونس والمشرق الإسلامي دون غيره، لأنهم أصبحوا يشعرون بعدم الأمن على دينهم فبعضهم توجه إلى تونس والبعض الأخر إلى دول المشرق الإسلامي، ولعبت الطرق الصوفية دورا فاعلا لحركة الهجرة. فنجد "الشيخ المهدي" في بلاد الزواوة الذي أفتى سنة 1847م ونصح المسلمين بمغادرة هذه الأرض المضطهدة، وأن يهاجروا إلى الأراضي الإسلامية ليحافظوا على دينهم ودنياهم، وترتب عن هذا الحراك انتقال أكثر من ألفي عائلة من بلاد القبائل إلى سوريا، كما دعا الشيخ " سي الحاج عمار" سنة 1852م سكان القبائل إلى الهجرة إلى كل من تونس والبلاد الإسلامية في منطقة سور الغزلان وذراع الميزان.[2] كما كانت الجامعة الإسلامية سببا آخر هاما من أسباب الهجرة الجزائرية، وذلك

من خلال دعاية السلطان " عبد الحميد الثاني " إلى الهجرة إلى الشرق الأدنى، وتأثير زعماء الجامعة الإسلامية مثل " الأفغاني ومحمد عبده" في نفوس الجزائريين ودعوته للإصلاح الديني[3]، كما كان للكتب التي تهرب من الشرق الأدنى عبر تونس إلى الجزائر دورا هاما في الدعاية للجامعة الإسلامية إضافة إلى الجرائد التي دعت الجزائريين إلى أرض الحريات والوعود مثل جريدتي "المؤيد" و "المهاجر"[4] ، وإضافة إلى ذلك الرسائل التي كان يبعث بها المهاجرون الجزائريين في القرن التاسع عشر إلى ذويهم في الجزائر والتي كانت تصف الحرية والأخوة في الشرق الأدنى.[5]

ويشير "فرحات عباس" إلى أن صدى الجامعة الإسلامية في الجزائر كان سببا كافيا إلى هجرتهم إلى تونس ودول أخرى، وذلك من خلال المراسلات التي كانت بين المهاجرين الأوائل وذويهم في الداخل أو حتى في عودة بعضهم، فنسجت في أذهانهم أساطير كثيرة عن الوضعية الطيبة والمعيشة الرغدة التي يعيشها ذويهم، فلم يبق للخماس حينئذ إلاّ أن يقف على أثر المغامرين الأوائل ويهاجر هو أيضا المهانة والفاقة".[6]

من جهة أخرى يذكر "كامبون" بأن تصوير الحياة في تونس أو في الشام على أنها رغدة هو ما جعل المهاجرين يعمدون إلى التوجه هناك، وقد جاء في إحدى المراسلات: " تعالوا واقضوا بقية حياتكم في بلاد غنية بالخيرات والصلوات والاحترام، وقد وعد الله المهاجرين مكانا أفضل في الآخرة " ويذكر أيضا أن بعض

الذين هاجروا من قبل من زواوة رجعوا إلى دواويرهم الأصلية ليناشدوا إخوانهم في الدين والالتحاق بهم في تلك الأراضي المباركة.[7]

أما فيما يخص دوافع الهجرات العلمية فهي متنوعة، فكانت زيارة البقاع المقدسة بالحجاز، ينتج عنها ربط صلات أخوية وعلمية مع بعض المفكرين والأدباء أو الالتحاق بمعاهدها وجوامعها. كما فعل "ابن باديس" أثناء عودته للجزائر من رحلته إلى الحجاز حيث عرج على سوريا ولبنان ومصر واتصل خلالها ببعض رجال العلم والإصلاح، فكانوا يهاجرون إلى البلاد الشقيقة لينهلوا من معين جامعاتها ومراكز العلم بها ما يروي ظمأهم للعلوم والمعارف.[8]

كانت تونس المقصد الأول لطلاب العلم من الجزائريين وبالتحديد الجامعة الزيتونية ومدارسها حيث استقطبت إليها العديد من الطلبة من جهات عديدة من تبسة وعين البيضاء وقسنطينة وغيرها من مدن الشرق الجزائري.[9] يقول عبد الله الركيبي عن سبب هجرة الجزائريين العلمية إلى تونس: " إن دافعنا إلى الهجرة هو دافع جيل كامل بل أجيالا قبلنا تهدف إلى أن نتثقف ثقافة عربية إسلامية أصيلة، خاصة وأن التعليم المتوسط والثانوي لم يكن بالعربية ولكنه كان بالفرنسية، ونحن أبناء الشعب من يعيش منا في الريف أو القرية لا فرصة له ليواصل تعليمه بعد الابتدائي فكانت الزيتونة ملجأ لمن حرم من ثقافته وتراثه

القومي، ولم يكن للجغرافية دخل في هذه الهجرة الى تونس فهناك التقينا بأمثالنا من شتى أنحاء الوطن".[10]

بدأ سفر الطلاب الجزائريين إلى تونس في آخر القرن الثالث عشر الهجري وهو النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانوا أفرادا قليلين منهم الشيخ " الحاج سعيد بن يوسف اليسقني" الذي رجع من تونس حوالي 1287 هـ - 1871م، تولى التدريس في ميزاب وكان ممن أنعش النهضة الميزابية الحديثة ودفعها إلى الأمام، ثم بدأت الهجرة إلى تونس تكثر في العقد الأول من القرن العشرين لأن الكثير من العائلات الجزائرية الميسورة والمتوسطة منها فضلت إرسال أبنائها لمزاولة التعليم في الجامعة الإسلامية وبالضبط جامع الزيتونة[11]، وممن هاجر إليها في ذلك العهد نجد عائلة "بولحال" التي أرسلت ابنها للزيتونة سنة 1909م، وعائلة بن باديس التي أرسلت "عبد الحميد بن باديس " للدراسة في الجامعة الزيتونية والتي عاد منها سنة 1912م بعد حصوله على شهادة التطويع، وهاجر أيضا الشيخ " الحاج الناصر كروش" وابنه " الشيخ حمو" وغيرهم، وفي النصف الثاني من القرن العشرين هاجر الشيخ "أبو اليقظان" و "الحاج عمر العنق" وتعد بعثتهما أول بعثة ميزابية اجتازت تبسة إلى تونس وكانت في شهر ماي 1914م[12]، وكان وادي ميزاب أسبق النواحي الجزائرية كلها في إرسال البعثات العلمية المنظمة إلى تونس، حيث بلغ عددهم بعد الحرب العالمية الأولى مئات.

وكانت لهم ديار كبيرة لسكنى التلاميذ برؤسائها الحازمين المربين وبنظامها الإسلامي الذي يكفل للتلميذ راحته وعمله وتربيته.

ويرجع الفضل الكبير في إرسال الرعيل الأول للبعثات الطلابية إلى الزيتونة إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس فبعد عودته إلى الجزائر بسنة واحدة فقط، وبرعاية وتشجيع منه وصلت أول بعثة طلابية إلى تونس سنة 1913م، حسب تقدير محمد الصالح الجابري. أما محمد علي دبوز فله رأي آخر حيث يرى أن أول بعثة طلابية كانت سنة 1917 م.

لما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها لم يتمكن الطلبة من البقاء في تونس واضطروا للعودة إلى ديارهم إلى أن انتهت الحرب لتستأنف هذه البعثات طريقها إلى تونس، وكثرت الهجرة وتدفقت أفواج كثيرة من الطلبة الجزائريين، وصارت تونس هي مقصد كل من يريد الثقافة العربية الواسعة.[13] ومن بين طلاب العلم الذين توافدوا على مؤسسات التعليم بتونس بعد الحرب العالمية الأولى، وتخرجت بداية من سنة 1924م نذكر: محمد اللقاني ابن السائح والشيخ محمد خير الدين ومحمد العيد آل خليفة والسعيد الزاهري ورمضان حمود ومبارك الميلي ومفدي زكريا وحمزة بوكوشة وأحمد توفيق المدني وغيرهم ممن عادوا إلى الجزائر ووظفوا علمهم وجهودهم لتربية الأجيال والنضال العلمي والتربوي والكفاح الثقافي بصفة عامة.[14]

لم يكن للجامع الأعظم بالعاصمة التونسية دورا هاما فقط في استيعاب الموفدين إليه، بل توسعت البعثات إلى فروعه المنتشرة بمعظم أنحاء البلاد وبخاصة المعاهد الزيتونية المنتصبة على طول الحدود، بدءا من مدينة توزر بالجنوب التونسي إلى مدينة بنزرت في أقصى شمال البلاد، إذ استوعبت هذه الفروع آلاف الطلبة الجزائريين الذين يأتونها من كل المدن يختصرون الطريق والمصاريف الباهظة التي كانوا يتكبدونها.[15]

تتابعت البعثات العلمية منذ ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931م، التي اهتمت بالتعليم والتربية كمقوم أساسي في دعوتها الإصلاحية والتربية كمقوم أساسي في دعوتها الإصلاحية واهتمامها أكثر بالبعثات الطلابية إلى العالم الإسلامي، إذ استقبلت تونس لوحدها سنة 1936م، ما يقارب 200 طالب.[16] ويمكن أن نشير إلى بعض خريجي الجامعة الزيتونية ومعاهدها والذين كان لهم دور مؤثر في الحياة الفكرية والثقافية والسياسية في الجزائر بعد الاستقلال، وهم: أبو القاسم سعد الله وصالح خرفي وعبد الله الركيبي وأبو العيد دودو والجنيدي خليفة والأخضر السائحي وعبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار، فضلا عن الآلاف من ذوي الثقافات والاختصاصات والميول الأخرى من مهندسين وأطباء وقادة عسكريين ممن تكونوا في رحاب الجامعة وأدوا رسالتها الحضارية على أكمل وجه.[17]

هذا العطاء الذي قدمته الزيتونة للجزائر والعروبة والإسلام هو الذي حمل كل خريجيها للاعتراف بفضلها وتقديرها ودروها كمعلم علمي جليل، ومن شواهد ذلك الاعتراف، نجد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي كتب مقالا بعنوان " في تونس العزيزة " يعترف بجميل تونس في تكوينه قائلا : " ... حقا إنا لتونس هوى روحيا بقلبي لا يضارعه إلا هوى تلمسان، أعرف ذلك من انشراح في الصد، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب لا أحد مثلهما إلا في ربوعهما، ومن نعم الله عليّ في العهد القريب أن يسّر لي التردد بين (الخضراء) و (البهجة)، وقد كانت أخرهما في تونس ذات مظهر ممتاز ومغزى سام " وكانت تلك آخر زيارة لتونس من عبد الحميد بن باديس.[18]

ويقول أيضا: " .. وإن أنسى فلا أنسى دروسا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ بن عاشور (...)، فقد حببتني في الأدب والتفقه بكلام العرب وأحسست من الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما اعتززنا بالإسلام ".[19]

أما محمد السعيد الزاهري فقد أظهر شتى عواطف الولاء والتقدير الشخصي والوطني لما قدمته الزيتونة للجزائر وأبنائها قائلا: " إن جامع الزيتونة كان أشبه بخلية النحل في ذلك العهد الزاهر، يشتهر بأكثر من شخصية علمية وأدبية تشد الرحال إليها من الأقاصي، وكانت أمهات الكتب العربية هي المورد الذي تلتقي حوله الحلقات، فكان الجامع بذلك التفاتة وفية للتاريخ وللتراث

العربيين في أقطار ثلاثة تعاني من غزو دخيل ومن عدو مشترك، كما كان الجامع همزة وصل للنهضة الأدبية الحديثة في المشرق والدعوة الإصلاحية المتجاوبة في أرجائه، وأنا مدين لكلية جامع الزيتونة بتونس فقد تخرجت منها وأحرزت على شهادتها (شهادة التطويع)، وما تراه في الجزائر من حركة العلم والأدب والإصلاح الديني هذه أيضا مدينة لجامع الزيتونة فكثير من رجال هذه الحركة قد تخرجوا في الزيتونة وأحرزوا على شهادتها العلمية".[20]

وبنفس المشاعر كتب الشيخ محمد خير الدين في مذكراته قائلا : « عاشت تونس خلال مقامي بها ما بين عامي 1918م -1925م فترة خصبة عامرة باليقظة والنهضة، رأيت فيها ما لم أشاهده من قبل في حياتي الأولى بالجزائر، فأثر ذلك في تكويني وهيأني للعمل على نهضة الجزائر في مجالين متوازيين هما: الإصلاح الديني، والإصلاح الوطني، وهكذا استفدت من اقامتي بتونس، زيادة على العلم بزاد آخر سياسي واجتماعي ثري ورجعت إلى الجزائر مؤمنا بأن نهضتنا تتحقق بالعمل في المجالين السابقين إحياء الدين، وإذكاء روح النهضة بين المواطنين».[21]

أما المرحوم أبو القاسم سعد الله الذي عبر عن تقديره للزيتونة قائلا: « ولا أكتمكم أني عشت هذه الوحدة بكل جوارحي عشتها في الممارسة اليومية منذ دخلت تونس تلميذا سنة 1947م وعشت بآمالي منذ أصبحت طالبا

جامعيا ثم أستاذا، عشت في معاهد تونس وديارها وأحياءها كما يعيش التونسيون أخوة مطلقة في السراء والضراء. أشاع أساتذتنا بيننا أخوة العلم والوطنية وانتظمنا كطلاب في المظاهرات السياسية والأحزاب ... وحين رجعت إلى بلادي الجزائر سنة 1954م أحسست بحضوة كبيرة فيها وشوق جارف إلى تونس سجلتها عندئذ في شعري ومذكراتي، تذكرت عند ذلك قول المتنبي:

"خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا».[22]

وقد سرت روح المعرفة إلى كل الأجيال الأخرى التي مثلت مختلف البعثات فضلت تعرب عن هذا الوفاء في كل المناسبات، ونجد الشاب الطالب بالزيتونة " الحبيب بناسي" الذي درس في فترة الخمسينات وساهم في الكتابة في الصحافة التونسية، حيث كتب مقال بعنوان "فضل الزيتونة على الجزائر" ويقول في ذلك: " للزيتونة والحق يقال فضل على الجزائر في الميدان الثقافي، إذ لا ينسى الناس أن الجزائر محرومة من التعليم العربي كلية، بل اللغة العربية غير معترف بها، وهي تعامل معاملة سيئة والتعليم جريمة يعاقب عليها بأبشع العقوبات ".[23]

لما قامت الثورة الجزائرية سنة 1954م كان عدد الطلبة الجزائريين في الجامعة الزيتونية وحدها أكثر من ألف تلميذ، ولما رأى الاستعمار الفرنسي إقبال

الجزائريين على تونس، وبطولة العلماء الذين تخرجوا منها، أغلق باب تونس على الطلبة وجعل السفر إليها برخصة خاصة صعبة وكانت لا تعطى للتلاميذ، لكن ذلك لم يمنعهم من الهجرة لطلب العلم من الزيتونة وفروعها، فقد كان الطلبة يقطعون الحدود سيرا على الأقدام من جهة الجبال الصعبة التي لا يحرسها الفرنسيون لصعوبة الطرق فيها وبعدها والتوائها، ويذكر محمد علي دبوز: " أنه عندما يئس من الحصول على رخصة الذهاب إلى تونس سنة 1942م سلك الطرق الصعبة التي سلكها إخوانه الطلبة ".[24]

على الرغم من غلق فرنسا أبواب تونس في وجه طلبة العلم إلى أن جبهة التحرير الوطني لم تبق مكتوفة الأيدي، بل كلفت ممثلين في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بأن يسعوا على الأقل لفتح أبواب معاهد وجامعات بلدان أوروبا وأمريكا في وجه الطلبة الجزائريين، خاصة بعد إعلان إضراب 19 ماي 1956م. ونجحت في ذلك لتكون هذه النخبة النواة الأساسية لحركة التربية والتعليم في الجزائر غداة تحررها نهائيا سنة 1962م.[25]

عادة ما تكون الرحلة إلى تونس انطلاقا من بسكرة ومنها يمر على عدة ولايات منها: باتنة وقسنطينة وسوق أهراس وعنابة وتونس. فمثلا كان على طلبة وادي سوف لكي يسافروا الى تونس عن طريق القطار يمتطون أي مطية باتجاه بسكرة (سيارة، عربة، حمير...) ويذكر الشيخ محمد خير الدين الظروف التي

سافر فيها الى تونس قائلا: "أمضيت العطلة الصيفية في مسقط راسي بفرفار (بسكرة) دون أن أخبر أحدا بما عزمت عليه، وما أن جاء الخريف حتى تزودت وانطلقت للسفر، كأنني ذاهب الى قسنطينة وأنا قاصد تونس، ركبت القطار وحللت بها ليلا قضيت ليلتي الأولى في أحد الأسواق التي تبيت ساهرة، وفي الصباح توجهت إلى جامع الزيتونة واكتريت به سكنا، ونظمت شؤوني الخاصة ثم دخلت الجامع فهالني ما رأيت من فروق بين الحياة العلمية في هذا المسجد العامر والحياة العلمية في مدينة قسنطينة ".[26]

أما مولود قاسم نايت بلقاسم (1927م-1992م) فيقول عن رحلته:" سافرت إلى تونس في جانفي 1946م لمواصلة الدراسة بالجامع الأعظم وأذكر أني قطعت الحدود بين تبسة وتالة في تونس ليلا على البغال مع تجار السوق السوداء". ويؤكد ذلك الأستاذ "محمد الشريف بن الشيخ " الذي كان رفيق دربه حين سافرا إلى تونس قائلا: " قطعنا المسافات بين الحدود الجزائرية والتونسية على الأقدام عبر الجبال والشعاب خوفا من الوقوع في أيدي المراقبة الفرنسية .... كانت المغامرة خير وسيلة لتحقيق هذا الطموح مهما كانت الصعاب والمشاكل فاحتملنا وصبرنا".[27]

2 – معابر الهجرة ومناطق الاستقرار

أ – معابر الهجرة

عرفت مسارات هجرة الطلبة الجزائريين إلى تونس ثلاثة اتجاهات شرق ووسط وجنوب الجزائر، ثم تليها منطقة الغرب وإن كانت غالبية الراغبين في الهجرة فيها قد اتجهوا نحو المغرب الأقصى لعوامل جغرافية واجتماعية، بالنسبة لمسار الهجرة الطلابية الى تونس من الناحية الشمالية والجنوبية الشرقية والجنوبية الصحراوية يقودان الى الجامع الزيتونة بصفة مباشرة وأهم المقاطعات بها قسنيطنة وعنابة وسوق أهراس والقالة.[28]

أما الجنوب فكان يعرف بمساراته ومعابره وأهمها وادي سوف وتوقرت وبسكرة وكانت هناك علاقة وطيدة بين سكان هذه الأقاليم وسكان تونس منذ القدم عن طريق الصحراء ولهم دراية بمسالك الطرق وأولى الهجرات الكبيرة من الصحراء تحت ظروف سياسية كانت ابتداء من سنة 1874م والتي ضمت 300 جزائري قطعوا الجنوب مرورا بالجريد التونسي وهجرات سكان وادي سوف وتوقرت وبسكرة والتي قدرت بحوالي 2000 فرد و12000 فرد هاجرت من ميزاب.[29]

كما توافدت الهجرات الجزائرية إلى الكاف سواء في شكل عائلي أو عروش، فمن بلدية سطيف 63 أهلي غادروا بدون إذن، وأعلنت الإدارة عن

تنقل ثلاث عائلات أصيلي دوار بن ضياف، ومن تبسة 17 نفرا، ومن عين البيضاء 07 أنفار ومن بلدة المعاريد 25 عائلة غادرة خلسة المنطقة لكنه تم إيقافهم أثناء امتطائهم القطار باتجاه تونس.[30]

أما المسار الثالث الذي كان يقتصر على ارتياد الزوايا والكتاتيب والمدارس الواقعة على مقربة من الحدود الجزائرية التونسي، وهو مسار الوسط الذي تمثله مدينة تبسة بموقعها الجغرافي بين قسنطينة في الشمال ومجموع مدن الجنوب بسكرة ووادي ميزاب ووادي سوف، كان هذا المسار يتخذ كمنفذ لعبور المدن التونسية، كما كان يستقطب في نفس الوقت نماذج من المتعلمين الذين ينزحون إليها من القرى التونسية وينتصبون للتعليم أو الإرشاد.[31]

في هذا السياق يصف مالك بن نبي نوع البعثات التي كانت ترحل من مدينة تبسة في اتجاه مراكز التعليم بنفطة* كما أشار إلى الطلاب الذين كانوا يأتون من نفطة لتباشر لونا من التثقيف والإرشاد الجماهيري في العشرينات بقوله: « كان في تبسة فوران من الأفكار حقا، يحفظه ويرعاه ويصونه العلماء الذين أخذوا يعودون من الشرق (شرق الجزائر وهو تونس) ولا يفوتنا أن نذكر أنهم كانوا يحفظون سنة من تبسة سنها شيخ من نفطة، التي كانت حينذاك في الحدود الجزائرية التونسية المركز الثقافي الذي يؤمه طلاب العلم الذين كانوا قد حفظوا القرآن على ظهر قلب في زاوية سيدي أبي سعيد، أو في زاوية سيدي عبد الرحمن

والذين لم يكونوا قادرين على القيام بدراساتهم العليا في الزيتونة في تونس. وبذلك المركز كانت الثقافة الإسلامية تشع في الجنوب القسنطيني كله وفي بداية هذا القرن كان المركز يديره شيخ خليل يسمى الشيخ سي محمد بن إبراهيم الذي كان يأتي بصورة منتظمة ليقضي فصل الصيف أي فترة العطلة في تبسة لدى صديقه القائد الصديق ».[32]

ب – مناطق الاستقرار

لم يقتصر استقرار المهاجرين على منطقة بعينها داخل البلاد التونسية، بل كان تفرقهم في شتى المناطق بدءا من الجنوب حتى الشمال، وكانوا في بداية هجرتهم شبه رحل ينتقلون من مكان إلى آخر بحثا عن الاستقرار والعيش، وكانت منطقة الجنوب الغربي أكثر المناطق في تونس ارتباطا بالمهاجرين الجزائريين، إذ كانت منطقة العبور لأغلبية المهاجرين، مع العلم أنه لم يستقروا هناك في بداية هجراتهم سوى أعداد بسيطة، نتيجة الظروف المناخية الصعبة وندرة المياه وعدم توفر فرص العمل، استقرت في مناطق "جريش وقبلي وقابس وقفصة وجربة للعمل في خدمة الزوايا.[33]

في أواخر القرن التاسع عشر استقربها "أولاد سيدي عبيد" في المنطقة المحاذية لمنطقة سيدي يوسف وسكان جبال ورغة الذين شكلوا النواة الأولى

لتكوين بلدة ساقية سيدي يوسف وخلال بداية القرن العشرين شهد الجنوب التونسي حركية اقتصادية مهمة تمثلت في الشركات المنجمية في كل من " أم العرش" و"المتلوي" و" الرديف" و" المضيلة " وبهذا أتيح للجزائريين فرصا للشغل حتى بلغت نسبتهم في هذا المجال سنة 1936م 10% من مجموع العمال مقارنة بالتونسيين 40% والليبيين 50%. وبالرغم من طبيعة المنطقة الزراعية إلى أنه كان للمهاجرين نصيبا من التجارة والنشاطات العرفية فيها.[34]

أما استقرار المهاجرين في المناطق الوسطى والشمالية لتونس فتعود إلى بداية الاحتلال 1830م وذلك نظرا لصبغتها الزراعية وشهرتها في إنتاج الحبوب، ومثلت هذه المناطق "بنزرت"،[35] وبعد إخماد ثورة 1871م استقر أغلبهم في الشمال مثل جندوبة وماطر وباجة وبنزرت وبالخصوص تونس العاصمة. وفي نهاية القرن التاسع عشر هاجر سكان القبائل إلى المنطقة الشمالية والوسطى وقدروا بـ 1000 شخص وسكان القطاع القسنطيني الذين قدروا بـ 500 شخص، أما السكان العاصمة اتجهوا في الشمال الغربي وبالضبط في طبرقة والكاف وباجة.[36]

مع مطلع القرن العشرين توجهت إلى تونس أعداد هائلة من الجزائريين نتيجة القوانين الاضطهادية التي قام بها الاستعمار الفرنسي ضدهم مثل قانون الأهالي والتجنيد الإجباري، استقروا كذلك في القيروان وصفاقس وسوسة ونابل وقليبية وقرنبالية وخنقة الحجاج وزغوان ووادي الرمل والفحص وبئر مشارقة

والمحمودية وحجاز الباب وباجة والكاف لوحدها كان يعيش بها 1500 مهاجر جزائري سنة 1946 م.[37]

تعود كثرة الهجرة الجزائرية نحو منطقتي الشمال والوسط إلى نشاطهما ألفلاحي ووجود فرص العمل والمعاملة الحسنة التي يعامل بها التونسي الجزائري، ويشاركونهم محن أهاليهم ويشدون من أزرهم ويعرفون بالقضية الجزائرية. وتركز نشاط المهاجرين الجزائريين في البلاد التونسية على العمل ألفلاحي المجال الأرحب الذي استوعب أعدادا هائلة من الأيدي العاملة الجزائرية بالإضافة إلى عمل المناجم وأعمال البناء والمصانع ومهن خاصة، ومع بداية فرض الحماية الفرنسية على تونس لم يعد للجزائريين عملهم الخاص بهم بل أصبحوا يخضعون لهيمنة المراقب المدني الفرنسي.[38] وهذا في اعتقادنا سببا في تمرد بعض العروش على الحدود الجزائرية التونسية، ونجد المصادر الموثقة في الأرشيف الوطني التونسي ANT تشير إلى أحداث شهدتها المناطق الحدودية من خلال تقرير حرر في 16 أكتوبر 1880م حول الاضطرابات على الحدود من قبل الوزير الأول التونسي مصطفى بن إسماعيل إلى الوزير الأول الفرنسي وقد جاء فيه أن بعض العروش على الحدود أحدثت هرجا ومرجا وشقت عصا الطاعة وسببت حرجا للحكومة وعلية وجب معاقبتهم على جرائمهم وتماديهم.[39]

بالرغم من الأوضاع القاسية التي عاشها المهاجرون الجزائريون، فإنهم لم يفقدوا الأمل، وحاولوا أن يتبنوا أساليب جديدة في مقاومة الاستعمار الفرنسي، بمشاركة إخوانهم التونسيين في الأحزاب وفي الحركات الوطنية التونسية، فانضموا تحت لوائها وأكسبوها طابعا تونسيا – جزائريا، بل وتتابع تغلغلهم في الأجهزة الإدارية والتنفيذية وفي الأحزاب والصحف، كل هذا لتحقيق هدفهم البعيد، ألا وهو مكافحة الاحتلال الفرنسي.

---

[1] أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2، ط4، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992، ص 121.

[2] عمار هلال، "الهجرة الجزائرية نحو الولايات العثمانية "، الثقافة، العدد 82 ، الجزائر: 1984، ص 69.

[3] أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، ص ص 114-116.

[4] التليلي العجيلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي 1876-1918، دار الجنوب للنشر، تونس: 2005، ص ص 104 -105.

[5] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزاءرية، ج2، ص ص 121 - 122.

[6] Abbas (Ferhat) : La Colonie à la province le jeune Algérien, Paris ; 1931 , P 32-33.

[7] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5 ، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1998م، ص ص 477-478.

[8] خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956، ج1، الجزائر: دار البصائر، 2009، ص 297.

[9] أحمد توفيق المدني، حياة كفاح مذكرات، ج 1، ط 1، في تونس 1905 - 1925، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1976 ، ص 87.

[10] نصر الدين سعيدوني، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 480.

[11] محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ط 1، الجزائر: المطبعة العربية، 1391هـ - 1971م، ص 20.

[12] نفسه، ص 178.

[13] محمد صالح الجابري، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، الجزائر: دار الحكمة، 2007، ص 3.

[14] محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م- م1962، ط1، الدار العربية للكتاب،1983، ص ص 36-37.

[15] محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م-1962م، ص 4.

[16] محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م-1962م، تونس: الدار العربية للكتاب، 1983م، ص 100.

[17] محمد صالح الجابري، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1990م، ص ص 5 - 6.

[18] عبد الحميد بن باديس، "في تونس العزيزة"، الشهاب، ج 5، المجلد 13، الجزائر: 1937/07/10، ص ص 225-228.

[19] خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956، ج1، الجزائر: دار البصائر، 2009، ص 252.

[20] صالح خرفي، محمد السعيد الزاهري. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ص 26.

[21] محمد خير الدين، مذكرات، ج 1، الجزائر: مؤسسة الضحى، 2000 م، ص 8.

[22] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2 ، ص 122.

[23] الحبيب بناسي، " فضل الزيتونة على الجزائر"، الشهاب، العدد 125، الجزائر: 27 أكتوبر 1927م.

[24] محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ط1، المطبعة العربية، الجزائر: 1971، ص 20.

[25] يحي بوعزيز، "أوضاع التعليم في الجزائر خلال الثورة (1954م-1962م)"، مجلة الهداية، العدد 160، تونس: سنة 29 أفريل 2004 م، ص 80.

[26] محمد خير الدين، مذكرات، ج 1، ص66.

[27] خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900م-1956م، ج1، ص 978.

[28] نفسه، ص 268.

[29] نفسه، ص 271.

يوسف الجفالي، " الجالية الجزائرية بجهة الكاف من 1881-1929،مذكرة للكفاءة في البحث، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس: 1992[30]م-1993م، ص 168.

[31] محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م- 1962م، ص 39.

[*] نفطة : إحدى قرى واحات الجنوب التونسي المتاخم للحدود الجزائرية، تشتهر بنشاطها العلمي، وبانتساب عدد من الشعراء والكتاب إليها في الماضي والحاضر.

[32] مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ج 1، ترجمة: مروان القنواتي، بيروت، لبنان : دار الفكر، 1969م، ص 134.

[33] خير الدين شترة، المرجع السابق، ج1، ص 273.

[34] نفسه، ص 274.

[35] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1998م، ص 475.

[36] **يوسف** الجفالي، المذكرة السابقة، ص 47.

[37] خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900م-1956م، ج1، ص ص 276 - 277.

[38] نفسه، ص 284.

[39] ANT, FA 1881/H/0215/Référence, 0299.